مصرُ تتشافى
رَحْلَةُ أُمِّ الدُّنْيَا نَحْوَ الغَدِ
تمكين
TAMKEEN
KNO SCHOOLS
EMPOWERING HUMANITY
360
ADVANCE THROUGH TECHNOLOGY
KNO SMART SCHOOLING

د. خميس بن عبيد العجمي
رئيس مجلس إدارة مجموعة تمكين الاستثمارية
رئيس مجلس أمناء سلسلة مدارس كينو الخاصة

لا يوجد خلاف بين اثنين بأنّه ثمّة علاقة عميقة بين الجرح والهويّة، فالأمم، شأنها شأن الأفراد، لا تُعرَّف بانتصاراتها وحسب، إنّما بجراحها وبكيفيّة شفائها منها أيضاً، فحين نتحدّث عن الشّفاء، فإنّنا لا نتحدّث عن نسيان الألم، بل عن استحالته إلى حكمة، وتحويل النّدبة إلى شاهد على القدرة على البقاء....

فها هي مصر، في رحلتها المعاصرة خلال العقد الأخير (2014-2024)، تقدّم أكثر من مجرّد نموذج تنمويّ؛ فهي تقدّم درساً فلسفيّاً عميقاً في معنى الوجود الحضاريّ، وكيفيّة استعادة الأمّة لروحها بعد أنْ كادت تفقدها، وكيفيّة تحوّل الألم الجماعيّ إلى إرادة جماعيّة، وكيفيّة تحويل البناء الماديّ ليصبح رمزاً لبناء المعنى ذاته....

ففي فلسفة البناء، فقد ضربت مصر مثلاً في التحوّل من الخواء إلى الامتلاء، فولدت المدينة من الصحراء، وارتفعت أبراج العاصمة الإدارية الجديدة، وكان هناك ما هو أعمق من مجرّد عمران، كان فعل الخلق، بتحويل العدم إلى وجود، والفراغ إلى معنى، والخروج من أسر الماضي لصناعة المستقبل...

فلم تكن العاصمة مجرّد مقرّات حكومية؛ إنّما كانت رمزاً للتجديد، وإعادة توزيع للوجود ذاته، ومنح الأجيال الجديدة مساحات للحلم والعمل، ورسم خريطة جديدة للحياة، ولم تكن الطرق مجرّد روابط للوصل والانتقال، إنّما كانت رمزاً للبقاء والتّوسّع والتحرّر، فحين كانت القاهرة خانقة، وكان المواطن يقضي ساعات في الزحام، كان ما يُسرق منه ليس الوقت فحسب، بل الطاقة النفسيّة، والأمل، والقدرة على الحلم، فكلّ دقيقة في الزحام هي دقيقة من اليأس المتراكم، أمّا حين ينساب الطريق، وحين تختصر المسافات، فإنّ ما يحدث هو تحرير للطاقة الإنسانيّة ذاتها، فالطريق هو وعد بالوصول، والأمّة التي تبني الطرق هي أمّة تؤمن بأنّ الوصول ممكن، وبأنّ الأحلام قابلة للتحقّق...

وفي فلسفة السيادة الاقتصادية، فقد كانت السيادة رمزاً لاستعادة الإرادة، فبدء إنتاج الغاز الطبيعيّ مثلاً عام 2017، كان تحوّلاً في معنى السيادة، وتحوّل لمصر من دولة تستجدي الاستيراد، وتستدين لتسدّ فاتورة الطاقة، إلى دولة مُصدّرة....

فالسيادة الاقتصادية هي شرط الكرامة الوطنية، والدولة التي تعتمد على غيرها في طاقتها هي دولة مرهونة الإرادة، أمّا حين تُنتج طاقتها، وحين تصدّرها، فإنّها لا تكتفي بالاستقلال، بل تصبح مصدراً للقوّة في إقليمها، وهذا ما تحقّق أيضاً عبر توليد الطاقة المتجدّدة، فقد تحوّلت مصر إلى تصدير الكهرباء إلى دول الجوار، وهذا كلّه ليس مجرّد تجارة، بل هو نسج لشبكة من المصالح المشتركة لجعل استقرار مصر مصلحة إقليميّة، خاصّة بعد دخولها في برنامج إصلاح اقتصادي شامل بالشراكة مع صندوق النقد الدوليّ، ممّا أدّى لتحرير سعر الصرف، وخفض الدعم، ورفع الرسوم، وكانت هذه قرارات قاسية ومؤلمة، لكنّها كانت مخاض ولادة لا سكرات موت...

فالشّفاء الاقتصاديّ يتطلّب أحياناً علاجاً مراًّ، والأمّة التي تتحمّل الألم المؤقّت من أجل الصحة الدائمة هي أمّة تضع المستقبل فوق الحاضر، فقامت مصر بإنشاء صندوق مصر السياديّ عام 2018 لإدارة أصول الدولة، كتعبير عن فلسفة أنّ الثروة الوطنية يجب أنْ تُدار لا أنْ تُستنزف، وأنّ التنمية يجب أنْ تكون مستدامة، صديقة للبيئة ومسؤولة أمام الأجيال القادمة، وحين تتبنّى مصر الإستراتيجيّة الوطنيّة للذكاء الاصطناعيّ عام 2021، فإنّها تقول بأنّها لن تكتفي باللحاق بالعالم، بل ستكون جزءاً من تشكيل مستقبله....

وفي فلسفة الشفاء الإنسانيّ، فإنّ الشفاء رمز للدّولة التي تلمس روح مواطنيها، وترى في الصّحة حقاًّ وجودياً لشعبها، فقامت مصر بإطلاق مبادرة "100 مليون صحة" لفحص ملايين المواطنين مجاناً من الأمراض غير السارية، ولم تكن هذه مجرّد حملة طبيّة؛ إنّما بيان فلسفي عن معنى المواطنة، ففحص الدولة لمواطنيها مجاناً، ترجمة لقولها بأنّهم يستحقّون الحياة لمجرّد كونهم أناساً، لا لأنّهم يملكون المال...

فالصّحة ليست سلعة في السّوق، إنّما هي حقّ أساسيّ، وهذا هو جوهر الإنسانيّة؛ أنْ نعامل الآخر بناءً على ما هو عليه ككائن بشريّ يستحقّ أنْ يعيش بصحة وكرامة، فجاءت بعدها الإستراتيجيّة القوميّة للتأمين الصحيّ الشامل لتقول أنّ الصّحة ليست استثناءً بل قاعدة، وليست امتيازاً بل حقاًّ دائماً، وحين واجهت مصر جائحة كوفيد، لم تكتفِ بالاستيراد، إنّما قامت بتشغيل خطوط إنتاج المحاليل والأقنعة محلياً، فأصبحت السيادة الصحيّة جزءاً من السيادة الوطنيّة...

وفي فلسفة الحياة الكريمة، فقد كانت مبادرة "حياة كريمة" أكبر مبادرة تنموية في العالم، تستهدف تحسين حياة أكثر من 60 مليون مواطن (60% من سكان الريف) في البنية الأساسيّة والصحة والتّعليم، فكانت

الكرامة مرتبطة بوصول الماء النظيف إلى كلّ بيت، وأنْ يكون هناك مستشفى قريب، وأنْ يذهب الطفل إلى مدرسة لائقة، وأنْ يجد الشاب فرصة عمل دون أنْ يهجر قريته، فالكرامة هي أنْ تُرى، أنْ يُعترف بوجودك، وأنْ تشعر أنّ الدّولة تتذكرّك، في وقت كان الريف منسيًّا، وكان المواطن الريفيّ يشعر بأنّه خارج الزمن، وخارج الاهتمام...

وفي فلسفة الثقافة، فقد كانت رمزاً لروح الهويّة وذاكرة الأمّة، فمثلاً ما قامت به مصر من موكب مهيب لنقل 22 مومياء ملكيّة من المتحف المصريّ إلى متحف الحضارة المصريّة، لم يكن مجرد نقل آثار؛ إنّما كان طقساً رمزياً عميقاً لفكرة مسير التّاريخ بين شوارع القاهرة، وفي ذلك تذكير بامتداد الحضارة العظيمة، لا لنعيش في الماضي، بل لنستمدّ منه القوة، وكذلك فكرة افتتاح المتحف المصريّ الكبير، ليكون أكبر متحف في العالم للآثار، ويعكس فكرة كونه بيتاً للذاكرة الجماعيّة، ومكاناً تلتقي فيه الأجيال مع تاريخها، وكذلك تجديد هضبة الأهرامات، وافتتاح دار الأوبرا المصرية والعديد من المسارح والمراكز الثقافية، فإنّ كلّ هذا يقول بأنّ الثقافة ليست ترفاً، إنّما روح للأمة..

وفي فلسفة القوّة النّاعمة، المتمثّلة في الدراما والإعلام، فإنّ الدراما المصرية، والإنتاج الفني، والإعلام كلّها أدوات للقوّة النّاعمة التي ظلّت مصر تمتلكها، فهذا الحضور اليوميّ في الوعي العربيّ هو ما يجعل مصر ليست مجرّد دولة بين دول، إنّما حاضرة في القلوب قبل الخرائط....

وفي فلسفة العدالة الاجتماعيّة، فقد جاء دستور جديد ليشكلّ أساساً لدولة مدنيّة حديثة، مع تعزيز لحقوق المرأة وتمثيلها، فلم يكن مجرد وثيقة قانونية، إنّما كان عقداً اجتماعيًّا، ورمزاً لاتفاق الأمة على مبادئها، وعلى ما تؤمن به، وعلى كيفيّة تنظيم العلاقة بين الفرد والدولة، فهو بذلك كان ترسيخاً حيًّا لقيمة المساواة كمبدأ دستوريّ لا كشعار عابر، ناهيك عن توجّه الدّولة نحو إصدار وتعديل مئات القوانين لدعم بيئة الأعمال، فالقانون هو البيئة التي ينمو فيها الاقتصاد، وهو الإطار الذي يحمي المستثمر ويُطمئن المواطن، والدّولة ذات القوانين الواضحة، العادلة، المشجّعة للاستثمار، هي دولة لسان حالها يقول: تعالوا وازرعوا هنا، فالتربة خصبة والقانون حامٍ..

وفي فلسفة البنية الأساسيّة والمواصلات، فقد كانت النظرة تتّجه نحو بناء بنية المستقبل التحتيّة، فالقطارات الكهربائية خطوط الأمل، لا تربط بين مكانين وحسب، إنّما تربط بين حلمين، فالشاب الذي يستطيع الوصول بسرعة وراحة إلى عمله، إلى جامعته، إلى فرصته، هو شاب يستطيع أنْ يحلم أبعد، والأمّة التي تُسهّل الحركة هي أمّة تُسهّل الحلم، وما افتتاح محطات جديدة لمترو الأنفاق، إلاّ فتح لشرايين جديدة في جسد المدينة المكتظّ، ومجال لتنفّس جديد لرئة كانت تختنق، وفي المقابل نجد أنّ تطوير وإنشاء موانئ جديدة، ما هي إلاّ أبواب تطلّ بها مصر على العالم، فالميناء ليس مجرّد رصيف، إنّما نقطة التقاء بين الدّاخل والخارج، والمكان الذي تصل فيه البضائع والأفكار، فيبدأ فيه التّبادل والحوار، فمصر، بموقعها الإستراتيجيّ هي جسر العالم، وتطويرها لموانئها، تأكيد على أنّها نقطة عبور لا نقطة انسداد، وممرّ للحضارات لا جدار بينها...

وفيما يتعلّق بالدّور الإقليميّ، فقد انتقلت مصر من القوّة إلى الحكمة، وذلك من خلال قيامها بإعادة بناء القاعدة الداخليّة، إذ فهمت مصر أنّ الدور الإقليميّ لا يُبنى على فراغ، ولا على ترنّح داخليّ، لذلك فقد كانت الأولويّة السعي نحو تحقيق الاستقرار السياسيّ والأمنيّ، والبناء الاقتصاديّ، وتعزيز السيادة الوطنيّة، وبناء قوّة اقتصادية، لتثبت أنّها دولة ذات سيادة، قادرة على حماية نفسها، ومن ثم قادرة على القيادة في ظلّ إستراتيجيّة قائمة على الحكمة لا القوة، وعلى الوساطة لا الانحياز، فهي قد أكّدت أنّ القوة الحقيقيّة ليست في القدرة على الضرب، بل في القدرة على بناء الجسور، وتحقيق الأمن الجماعيّ المرتبط بفكرة أنْ نبني معاً لا أنْ ننهار وحدنا...

وفيما يتعلّق بفلسفة الرياضة والسياحة، فقد كانت كلتاهما نوافذ للانفتاح على العالم، إذ قامت مصر باستضافة كأس العالم لكرة اليد 2021، وبطولة العالم للمصارعة 2022، وافتتاح فنادق ومنتجعات عالميّة، فلم تكن الرياضة مجرّد ترفيه؛ إنّما لغة عالميّة تجمع الشعوب، فحين تستضيف مصر العالم، فإنّها تقول للعالم تعالوا وشاهدوا، فنحن مستقرّون، آمنون، جاهزون، فهي رسالة طمأنينة ودعوة للعودة، والسياحة كذلك عادت بقوة، فالسائح الذي يأتي لا يأتي فقط ليرى الأهرامات، إنّما ليشعر بـالنبض الحيّ لأمة تنهض....

وبعد،

فمن خلال كلّ تلك الأبعاد، فقد خاضت مصر رحلة شفاء مستمرّة، لتثبت وجودها ونهوضها الحاضر، وكانت تدرك بأنّ هذا الشّفاء ليس نقطة وصول إنّما هو سلسلة من الجراح والشفاء، ومن السّقوط والنهوض، فما يميّز هذه الأمة العظيمة ليس غياب المشكلات، بل القدرة على مواجهتها، وليس عدم السقوط، بل الإرادة على النّهوض مجدّداً، فهذا هو معنى الوجود الحضاري الحقيقيّ، بأنْ ندرك أنّ الرحلة لا تنتهي، وأنّ كلّ محطة هي بداية لمحطة جديدة....

فلقب "أمّ الدنيا" لم يكن مجرّد لقب جغرافيّ أو شاعريّ؛ إنّما مسؤوليّة وجوديّة مانحة للحياة، والأمل، فمصر، بموقعها الإستراتيجيّ، وتاريخها الحضاريّ، وثقلها الثقافيّ والديموغرافيّ، حين تتعثّر، يتأثّر الإقليم بأسره، لذلك فقد كان شفاء مصر ضرورة إقليميّة ودوليّة قبل أنْ يكون مسألة داخليّة، ففي استقرارها استقرار للمنطقة، وفي نهوضها نهوض للأمل في إقليم يعاني من الصراعات، فهذا هو ما يجعل رحلتها رحلة الجميع، وشفاءها شفاءً للقلب النابض في جسد الأمة....

ولكنْ في هذه الرحلة الشفائيّة، تكمن جدليّة وثنائيّة خطيرة تظهر في خيارين؛ إمّا أنْ ننسى الماضي فنفقد هويتنا، أو أنْ نعيش فيه فنفقد مستقبلنا، والحكمة تقتضي إحداث توازن بين أنْ نتذكّر دون أنْ نغرق، وأنْ نحلم دون أنْ نتيه، ناهيك عن وجود العديد من الدّروس والقيم التربويّة التي تحملها رحلة شفاء مصر لها وللعالم العربيّ والعالم أجمع؛

أوّلها تربية الأمل في زمن اليأس، فالأمل ليس رفاهية، إنّما ضرورة وجوديّة، والتربية الحقيقيّة ليست في حشو العقول بالمعلومات، بل في تشكيل الوعي بالإمكان، وفي زرع الثّقة بأنّ الإنسان ليس مجرّد ضحية للظروف، بل صانع لمصيره...

وثانيها تأكيد لفكرة التّحوّل من الفرديّة إلى الوعي الجمعيّ، ومن أنا إلى نحن، فالمشروعات الكبرى ليست مجرّد إنجازات هندسيّة أو اقتصاديّة، إنّما هي طقوس جماعيّة تعيد تعريف معنى الانتماء، ومعنى الوعي الجمعيّ، الذي يظهر في شعورنا بأنّ هناك نجاحاً مشتركاً، ومسؤوليّة مشتركة، ومصيراً واحداً...

وثالثها قيمة العمل والإنجاز، فحين ترى الأجيال الشابة أنّ عقداً واحداً يمكن أنْ ينتج كلّ هذه الإنجازات فإنّ ما يتعلّمونه هو قيمة العمل الجادّ وقيمة الإصرار، وهنا تأكيد على أنّ الإنجاز ممكن، والمشكلات قابلة للحلّ، والمستحيل يمكن أنْ يصبح واقعاً إذا توافرت فيه الإرادة والتّخطيط والعمل المستمرّ، فهذه قيم تُغرس في الوعي الجمعيّ عبر المشاهدة والممارسة، لا عبر الوعظ والخطابة...

ورابعها العدالة والإنصاف، فهذه المبادرات وغيرها تُعلّم درساً أخلاقياً عميقاً بأنّ العدالة ليست شعاراً، إنّما فعل، فحين تذهب الموارد إلى أكثر المناطق حاجة، وحين تعطى الأولويّة للمهمّشين والمنسيّين، فإنّ ما يتعلّمه المجتمع هو أنّ الكرامة حقّ للجميع، وأنّ العدالة الحقيقيّة هي أنْ يحصل كلّ فرد على فرصة متكافئة للعيش بكرامة...

وخامسها قيمة التّضامن الاجتماعيّ، فحين واجهت مصر جائحة كوفيد، لم تكتفِ بحماية نفسها، بل أرسلت مساعدات طبيّة لدول عربيّة، وقدّمت مساعدات إنسانيّة لدول أخرى، فهذا التّضامن هو قيمة اجتماعيّة عليا تعكس فكرة أنْ ندرك أنّ إنسانيّتنا تُقاس بقدرتنا على مدّ يد العون للآخر...

وسادسها استعادة الثّقة بين المواطن والدولة، فحين يرى المواطن أنّ الدولة تفي بوعودها، فتُبنى الطرق فعلاً، وتُفتح المستشفيات فعلاً، وتصل الخدمات فعلاً، فإنّ ما يتغيّر هو مستوى الثّقة التي هي رأس المال الاجتماعيّ الأهمّ، والمجتمع الذي يثق في دولته هو مجتمع يتعاون، يشارك ويبني، أمّا المجتمع الذي يفقد الثّقة فهو مجتمع منقسم، متشكّك وعاجز عن الإنجاز الجماعيّ..

وسابعها التّسامح والتّعايش، ففي عالم ممزّق بالطائفيّة والانقسامات، تقدّم مصر نموذجاً للتّعايش، وتؤكّد أنّ التسامح ليس ضعفاً، وأنّ قوّة الأمة التي تحتضن تنوّعها هي أمّة غنيّة، أمّا التي تُقصي وتُهمّش فهي أمّة فقيرة حتّى لو امتلكت الثروات بأكملها...

وثامنها قيمة الإنسان كغاية لا كوسيلة، فمبادرات مصر إعلان بأنّ الإنسان هو الغاية لا الوسيلة، ففي عالم يُختزل فيه الإنسان إلى أرقام اقتصاديّة وقوّة عمل ومستهلك ورقم في النّاتج المحليّ، فإنّ التّعامل مع المواطن كإنسان له كرامة وحقوق هو موقف أخلاقيّ قبل أنْ يكون موقفاً سياسياً...

وتاسعها تحمّل المسؤوليّة تجاه الأجيال القادمة، ففي الاستثمار في الطّاقة المتجددة، وتفعيل إستراتيجيّات الذكاء الاصطناعيّ تأكيد على أنّ الدولة مسؤولة أمام الأجيال القادمة، وأنّ التنمية المستدامة ليست مجرّد مصطلح تقنيّ، إنّما موقف أخلاقيّ يرتبط ببناء اليوم دون التّسبّب بفقر الغد، ويرتبط بالاستهلاك دون استنزاف، ويقتضي أنْ نحيا دون أنْ نحرم من يأتي بعدنا من حقّ الحياة...

وآخرها تحقيق السّلام كقيمة عليا، فاختيار مصر لدور الوسيط في الصراعات الإقليميّة، تعبير عن قيمة إنسانيّة عليا، ألا وهي قيمة السّلام، في وقت يمجّد العالم فيه القوّة العسكرية، وتختار الحكمة على القوة، والحوار على الصراع، وبناء الجسور على حفر الخنادق، فهذا موقف أخلاقيّ شجاع، فالسّلام يتطلّب الشجاعة أكثر ممّا تتطلّبه الحرب...

في النهاية، فإنّ مصر في رحلتها المعاصرة لا تمرّ بتجربة تنمويّة يمكن قياسها بالأرقام والإحصائيّات وحسب، إنّما تمثّل فلسفة في معنى الوجود الجماعيّ، وكيفيّة تحوّل الألم إلى قوة، والأزمة إلى فرصة، واليأس إلى أمل...

فالشّفاء فعل إرادة، واختيار واعٍ، وعمل مستمرّ، وبناء للجوانب الماديّة والمعنويّة على حدّ سواء، فهما وجهان لعملة واحدة، وهو تأكيد بأنّه لا وجود لنهضة دون عدالة، ولا كرامة دون سيادة، ولا قوّة حقيقيّة دون حكمة، ولا أمل وتراث دون توازن، فالشّفاء حاصل لا محالة، لا لأنّ الظروف تغيّرت، إنّما لأنّ الإرادة قرّرت التّغيير، ولا لأنّ الطريق أصبح سهلاً، إنّما لأنّ مصر قرّرت أنْ تمشيه رغم صعوبته، ولا لأنّ الألم زال، إنّما لأنّ مصر تعلّمت كيف تحوّله إلى قوّة...

فشعار "مِصْرُ تَتَشَفَّى" يعكس حالة من الاستنهاض الذي يلامس كلّ مصريّ وكلّ عربيّ يحمل في قلبه ذرّة من انتماء لهذه الأرض، فهي رحلة تثبت أنّ الأمم العظيمة لا تعرف سوى قانون واحد؛ ألا وهو أنّ الحياة تدبّ من جديد في الجسد الذي يؤمن بقدرته على النهوض، فها هي "أمّ الدنيا"، بعد أنْ استعادت أنفاسها، تواصل رحلتها الأبديّة نحو الغد، حاملةً معها تراث سبعة آلاف عام من الحضارة، ودروس الألم التي تحوّلت إلى حكمة، وإرادة شعب قرّر أنْ يكون سيّد مصيره، وأحلام أجيال تستحقّ أنْ تتحقّق، لتثبت بذلك للعالم أنّ الشفاء ليس مجرّد احتمال، إنّما هو قدرة هذه الأمة التي كتبت - وستظل تكتب - على جبين التاريخ بأنّها حاضرة ماثلة وقادرة على التّواجد بكلّ قوّة...

فيا شعب مصر العظيم، يا من قال عنكم جلالة السلطان قابوس المعظّم - رحمه اللّٰه وطيّب ثراه – في عام 1984 في إحدى خطاباته:

" ولقد ثبت عبر التاريخ المعاصر أنّ مصر كانت عنصراً أساسيّاً في بناء الكيان والصّف العربيّ وهي لم تتوانى يوماً في التضحية من أجله والدفاع عن قضايا العرب والإسلام، وإنّها لجديرة بكلّ تقدير"...

فهنا همسة لكم...

بأنْ تكونوا سنداً لقيادتكم التي تجمع بين حكمة الدبلوماسيّة وجسارة البناء، فوحدتكم معها تمنحها القوة والمصداقيّة في المحافل الدوليّة، وثقوا بأنّ "مع العسر يسراً"، فالصّعوبات الحاليّة ما هي إلاّ مخاض ولادة مصر الجديدة القويّة المستقلّة، ولا تيأسوا من روح اللّٰه، وشاركوا في البناء بالعمل الجادّ والإبداع والأمانة، فكلّ مواطن جنديّ في معركة النّهضة، وتذكّروا أنّ الأمّة التي بنت الأهرامات وحفرت قناة السويس وانتصرت في أحلك الظروف قادرة بإذن اللّٰه على تجاوز أيّة تحدّيات، فالمستقبل يبشّر بخير والرؤية واضحة، فاصبروا وواصلوا حتى تروا مصر قويّة آمنة مزدهرة...